قصة مصرية

أغنيـــــــة الفنان

بقلم الاديب محمد السيد محمد المويلحى

في هدوء كهدوء الموت ، تحركت ستائر الليل السوداء ، وأخذت تحيك من خيوطها نقاباً لتحجب به وجه الطبيعة المشرق !... رفع إلى السماء عينيه في أناة وبطء ، فإذا نجومها المنثورة ترتعد حيال القمر الباهت ، فذكر في هذه اللحظة الفراق بآلامه ، واللقاء بهناءته ، ولم يجابه خوالج نفسه طويلا ، وإنما ضحك في شيء من الجنون وقال : « ألا فليذهب مع الشيطان هذا الوحي الخبيث الذي يسلمني إلى الوحدة المرة » ، ثم بسط يديه في الهواء قائلا : « لتكن مشيئتك يا إلهى » ؛ ومن ثم ... مضى إلى أمه وأبيه وأخوته فتلقوه في كثير من العطف والحنان ، لأنهم أدركوا ما في نفسه من أوصاب دفعتها إليه تلك الأوامر التي حتمت عليه أن يغادر أهله إلى مستقره الجديد بالريف ؛ ولقد أدرك من جانبه مقدار ما يؤثر به فراقه في تلك الأسرة الوادعة العزيزة عليه ، فتظاهر بالمرح وهو يقول مخاطباً أهله : « لست أدرى ما يحزنكم ، فإن القرية التي قدر علي أن أنتقل إليها طيبة الهواء ، وإن في أهلها نزوعاً إلى الصفاء والوفاء ، فلا تحزنوا ، فإني ذاكركم في كل نفس يتردد به صدرى . . ! » على أن هذه الكلمات المشجعة لم تذهب من لوعة أمه الكامنة ، وفزع والده المروع ، ولم تكفكف من هذه الدموع التي جرت على وجوه أخوته كالسيل ؛ ولكنه أخذ يسمرهم ويتندر معهم حتى أسلموا أحزانهم إلى الفناء ، وحتى افترت ثغورهم المغلقة عن ضحكات مذبوحة . . . ! ! وبقيت الأسرة طيلة الليل دون أن يذوق لواحد من أفرادها جفن ، حتى إذا ما احتمل الليل رداءه فراراً من كتيبة الضوء الذي أطلقته الشمس شعاعاً ذهبياً براقاً ، كانت الأسرة في طريقها إلى « محطة مصر » لتودع فتاها الذاهب إلى « شبين الكوم » ، ويالها من دقائق ، تلك التي خذل خلالها الجلد لتنتصر الدموع ؛ فها هو القطار يتحرك ؛ وتلك هي أنات الأسرة تشيع آذان فتاها بالطنين الصارخ ؛ ولكن حركة القطار العنيفة قد طغت على هذا الموقف الفاجع ، فإذا الأم والوالد والأخوات وقوف على الأفريز ؛ وإذا فتانا يتطلع إليهم فلا يرى إلا بيوت القاهرة تفلت من نظراته الحائرة ، لأن القطار أطلق عجلاته ليسابق الريح . . . ! !

ومضى القطار في سبيله يطوى الأرض ، وينساب كالقذيفة ، حتى أتى « شبين الكوم »

فأفلت فتانا من قيده ، وأخذ طريقه على غير هدى يذرع بقدميه شوارع المدينة ، ولم تكن « شبين الكوم » منتهى الشأو فى رحلته ، وإنما كانت نهايتها فى « مليج » ، فمضى إليها فى حافلة حتى أدركها مع الليل . . . . !

* * *

ورأى محمد أن يستهل صنائعه فى « مليج » بالذهاب إلى منزل « العمدة » حتى يتعرفه إليه ، ويظهره على أنه المدرس الجديد الذى هيأت له الأقدار مستقراً فى هذه القرية ؛ وكان العمدة على شىء غير قليل من الأدب الجم والظرف الرائع ، فأقبل على محمد يمعن فى إكرامه ، ويزيد فى وشائج الترحيب به ، ثم أخبره بعدئذ أنه هيأ له منزلا لسكناه ، وأنه يجدر به أن يصطحبه إليه حتى يسلم إلى حجراته حقائبه .

* * *

وإنها لدار أنيقة رشيقة ، تلك هى الدار التى استأجرها عمدة « مليج » لضيف قريته الجديد ، فما كاد « محمد » يستوعبها حتى حببت إليه مشاهدها المقام ، وحتى قال للعمدة فى شىء من الخجل : « إننى أشكرك ، وخير لى أن أستريح ...! » فتركه العمدة راجياً له ليلة سعيدة . !

ولكن ... هل أسلم محمد جفنيه إلى النوم ؟ لا . وإنما اقتعد مقعداً من النيل فى (الفيراندا) المطلة على « البركة » الصغيرة ، وأخذ يتمعن القمر وهو يسكب الضوء الساحر على هذا الماء الراكد ، وأخذت عاطفة الفن الموزعة فى نفسه تدعو يديه إلى اقتناص « العود » الجاثم فى مستقره ... وكان محمد لامع الصوت ، ساحر النبرات ؛ وكان كل ما حواليه من مظاهر حياته الجديدة باعثاً له على الغناء ...!

وتكشفت أستار الليل لتدفع هذا الصوت الساحر إلى آذان السابلة الذين يدبون فى القرية ، فاجتمعت منهم تحت النافذة حشود ما كان أهناها بهذا الطرب ، وما كان أسعدها بهذا الوافد الجديد .

وعرفت القرية محمداً من هذه الليلة بأنه صداحها الفرد ، وبلبلها الأوحد ؛ وعرف محمد فى هذه القرية أنها جماع ما فى الطبيعة من سحر ، وما فيها من فتنة ؛ فكانت له جلسات هانئة إلى شاطىء البحيرة الصغيرة ، وطالما غنى على هذا الشاطىء ؛ وكثيراً ما جمع إليه الرفاق ، ويا طالما هز أعطافهم ، وغمر قلوبهم سعادة وبشراً ...

* * *

ولم يغفل عن ملوق صاحبنا الحسان ، وإنما كانت فتيات القرية وعجائزها يختلسن الساعة التى يغنيها ليتدافعن إليه ، ويعلن الاعجاب به إعلاناً ... ولكنه كان فى غير حاجة إلى مبادلتهن النظرة المغرية ، والبسمة الجريئة ... كان فى غير حاجة إلى ذلك ، لأن قلبه الخلى قد دفع إلى جسيمه صورة المعبودة الواحدة ..!!

لمن هذه الصورة ؟

إنها صورة فتاة لقيها تمد أذنيها على الشاطىء لتسكب فيهما سحر صوته.. ويا شد ما أبطلت سحره حين ألقى على وجهها المشرق نظراته الحائرة ، وحين مد إلى قلبها وشيجة من قلبه ، وحين رفع بفم الريح إلى جبينها قبلته الطويلة ...

لقد جن بها وكفى ...

ولكنه ماذا يفعل حتى يؤوب بهذا الصيد إلى وكره ؟ إن الحياة الغرامية في الريف لا تخلق شيئاً غير العار والضغينة ، وهذا هو الفنان الفريد يتمثل فتاته بعيدة عن أنفاسه ، فلا يحتمل الصبر ، ولا يطيق التعلل .

وكانت تفد إلى داره في الصباح عجوز تصلح أمر مسكنه ، وتقدم إليه فطوره من « اللبن » ، فلم لا يسأل هذه العجوز عن فتاته ؟

وفي صوت كله قلق وكله حيرة ، قال محمد يخاطب العجوز : « هل تعرفين الفتاة التي تسكن بجوارنا ؟ » ، فأجابته : « أتعني توحيدة ؟ » ، فقال : « هل هذا هو اسمها ؟ » ، فأجابته : « نعم ، ولم تسأل عنها ؟ » ، فلم يجبها بشيء ، وإنما أجابها بتوجيه الحديث اتجاهاً لا شأن له بالفتاة ...

على أن العجوز الشمطاء قد أدركت الحقيقة الصريحة ، فمضت إلى « توحيدة » تسر إليها أن معبود القرية تفضل عليها بالسؤال، ثم ترقبت الفرصة السانحة لتلقى على فريستها شباك الكيد...

***

ما أسعد هذا الصباح، فها هو ذا باب الحجرة التي يرقد فيها « محمد » قد أخرجت منه أنامل « توحيدة » دقات كان من سحرها أنغام تطرب الشجي، وها هو « محمد » يفتح الباب ليسمع الصوت المطروب الذي يطلقه الثغر المحبوب ... وكان ثمة حوار :

— حضرتك سألت عني ؟

— سألت عنك ؟ !!! أيوه سألت .

— فيه خدمة ؟

— العفو ! مين يهون عليه إنه يخدّمك ؟ إنت يا توحيدة أقول لك الحق ...

— إيه بس قول !

— آه .. أقول إيه ، أقول إنك يا توحيدة السعادة التي ببحث عنها ؛ الأمل اللي عمال أدور عليه ؟

— ......

— ما بترديش يا توحيدة !!؟

— أرد أقول إيه ؟ أنا خجلانة ، أنا بردة زيك .

— زيي ! ومين اللي يمنع عنا السعادة اللي بنطلبها سوى ؟ !

وفي حومة الحوار ، تفتح الباب عن شبح العجوز الشائك وهي تقول :

— الله الله يا ست توحيدة ! دا يدوي عليك الخسارة دي ! إنت يا اختي طالعة لمين ؟

وأراد محمد أن يتدارك الموقف ، وأن يقرر للعجوز حقيقته التي لا غبار عليها ، وأن يظهرها على ما فيه من طهر ؛ ولكن العجوز قد ركبت رأسها الأخرق، فمضت إلى أم توحيدة تقدم إليها فتاتها مجرمة عابثة مستهترة ، وتهامست القرية بهذا الحادث ؛ ولكن محمداً رأى أن يقتلع جذور القول الفاحش ، فمضى إلى « العمدة » يسأله العون على خطبة توحيدة من أبيها ، ولم يجد في طريق أمنيته عقبات ، فتمت الخطبة ، وصمت الثرثارون المغرضون وهم يحترقون في دخائلهم احتراقاً .

ooo

وكأنما شاءت الغبطة أن تفارق هذه النفس — نفس محمد — ؛ فبينما كان يهيىء لفتاته من أحلامه وأمانيه دعامة يشيدان عليها صرح مستقبل سعيد هانىء ، إذا به يفجع بجيعة كبرى حين تسلم أمر النقل إلى القاهرة ؛ وكم كان يرجو — قبل أن يتعرف إلى « مليج » — أن لا يغادر المدينة الكبرى حيث أهله وقومه ؛ ولكنه — وقد عرف في هذه القرية توحيدة ، وأصبح قرانه بها على مسافة القذيفة — قد كره القاهرة ، وغمه العود إليها .

وها هو في المدينة يستقبل كل يوم رسائل صحبه في « مليج » ، ويستقبل معها كتب توحيدة ، وفيها ما فيها من وجد وغرام ، فلا تزيده تلك الكتب إلا إمعاناً في الدأب حتى يبلغ من أطماعه ما يريد .

ولكن ! أية وظيفة تلك التي تقف بينه وبين حرية السفر إلى « مليج » ليطمئن على فتاته ؟ لم لا يطلق الوظيفة ويطلق لنفسه العنان ، فيتم ما بدأه من دراسة الموسيقى ليكون بعدئذ فناناً حقاً ؟

لقد استقال محمد إذن من وظيفته ليستقبل حياته الجديدة . ولكن أية نكبة كبرى تلك النكبة التي هيأتها له الأقدار، والتي اكتوى بنارها اللافحة حين طلعت عليه هذه الرسالة التي وفدت عليه من « مليج » ، والتي كان كل ما فيها أن « توحيدة » قد خطبت إلى ع . باشا أحد السراة البارزين في « شبين الكوم » .

ليس في مقدور أحد أن يصور هذه الفادحة ، ولا أن يسجل تلك الكارثة الكبرى ، ولكن الزلزال الذي أصاب محمداً فأقعده يستطيع وحده أن يصور كل شيء .

وكم ارتاعت أسرة محمد لهذه الظواهر الجديدة التي انتهت إليه ، فقد كان دائم الذهول يتمشق العزلة ، ولا يطيق إلا صحبة « العود » ؛ وما زالت أمه به حتى أظهرها على أمره ، وما زالت تخلق له أسباب الجلد والسلوى ، ولكنها كانت لا تخلق في صدره إلا آلاماً وأوجاعاً .

على أن النكبة التي اكتنزها له الزمن كانت أروع وأفجع : فقد وفد على منزله أحد أصدقائه السراة الذين تعرفوا إليه في « شبين الكوم » وأخذ يقص عليه :

— بق يا محمد انت تعرف صديق ع . . باشا . — أعرفه قوى .

— المسألة إنه رايح يجوز الليلة الجية . وانا عاوز أفاجئه مفاجأة تخليه في غاية السرور ، وانت أصبحت لك صيتك في الطرب ، ولك مكانتك في شبين ، فأنا أرجوك ما تكسفنيش وتيجي تحيي لنا الليلة دي . . إيه رأيك بق ؟ — بكل سرور . .

شهد السرادق الفخم الذي يمتد أمام سراى « ع باشا » في شبين الكوم ما لم يشهد سرادق غيره من هذه السرادقات التي تحتشد بالوافدين عليها في ليالي الأفراح . . . فثمة آلاف من الناس الذين جمعهم هذا السرادق من كل أطراف المدينة ومن أشتات القرى والدساكر ، وكانت « مليج » تكتظ بأجمها في هذا السرادق ، لأنها تقدم إلى العريس — الخشن الجاف — بنتها البكر .

وشهدت منصة الطرب ما لم تشهدها أشباهها في كل العصور ، فها هو ذا محمد يطلع على الجماهير متوسطاً رجال تخته ليرسل السحر إلى أسماعهم ويدفع الطرب إلى دخائل نفوسهم ، بينما يتأرجح قلبه في دقاته ، وتتابع عينه بالدمع الواطف صدى لياليه وآهاته .

ولقد صارع الموقف الصعب ما شاءت له قوة الجلد ، ولكنه يعد « الوصلة » الأولى خر مغشياً عليه ، وأولئك الذين شهدوا هذه الليلة من « مليج » قد أدركوا السر الدفين ، فمضوا إلى تلك الجنة ومعهم طبيب من المدعوين ليعيدوا إليها الحياة .

ولكنها كانت جنة هامدة . !

محمد السيد محمد المويلحي

أيها المشـــــترك !!

إن « المعرفة » تفخر كل الفخر . وتتيه على غيرها ، بأنها مجلة المثقفين والعظماء ، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء في جميع أنحاء الشرق العربي .

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية ، وما تبذل في سبيل « المعرفة » من مال وجهد .

فهل أديت واجبك نحوها ؟ وهل سددت اشتراكك ؟ تذكر قليلا ، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته .

أبواب المعرفة